

الخصائص

لأبي الفتح عثمان بن جنى

مقدمه

كان القرن الرابع الهجرى أخصب قرون العربية انتاجا وتأليفا وابتكارا ، لأن أئمة الدارسين للغة والنحو والأدب قد ورثوا ثقافة القرون السابقة بعد أن ترجم إلى العربية أنمن ما لدى اليونان والفرس والهند من ثقافات وبعد أن جمع ما أمكن جمعه من مواد اللغة والأدب واتسع التأليف فى مسائل النحو والصرف اتساعا يميل إلى التبويب والتعليل والتدعيم بالشاهد والبرهان مما أدى إلى ظهور طبقة من الأعلام الثقاق كانوا نجوم هذا العصر وكواكبه، وسنقتصر الآن على الحديث عن كوكب متألق هو صاحب الخصائص أبو الفتح عثمان بن جنى • تجمع كتب التاريخ على أنه ولد بالموصل على اختلاف فى عام ميلاده •

حياة المؤلف

وقد سجل المؤرخون وفاة ابن جنى سنة ٣٩٢ هـ فى خلافة القادر بعد أن عمر نحو من السبعين فيكون مولده اذن قبل سنة ٣٣٠ هـ كما استظهر ياقوت • وقد انفرد أبو الفداء بتحديد سنة ٣٠٢

بسلام:

د. المحسنى عبد المجيد هاشم

لمولده فيكون على ذلك قد بلغ التسعين : ثم جاء بروكلمان فأضاف عامين آخرين الى حياته اذ جعل ميلاده في سنة ٣٠٠ هـ وهو غير الراجح بالتأكد .

وكان والده جنى روميا يونانيا مملوكا لسليمان بن مهند بن أحمد الأزدى . لذلك ينسب أبو الفتح عثمان بن جنى الى الأزد ولأه فيقول عن نفسه في أكثر مؤلفاته . قال أبو الفتح عثمان بن جنى الأزدى ، وقد نشأ في عصر يرى في أولاد الموالي بعض الضعة عن عنجية آئمة لا تعترف من معين الاسلام في شيء ، وقد أحس ابن جنى غضاظة لازعة يوقدها مفهوم العامة الحاطي في براعة الأساب وخلوص الأعراق فاضطر الى أن يعوض ما فاتته لدى الناس بالتحصيل والجد ، فذأب دأبا بارزا على الكفاح العلمي في أشرف ميادينه حتى أصبح ذات يوم امام العربية في الناس وكان شعوره القديم بضالة نسبه قد انقلب الى تيه بصير مطمئن حين انتهى به الى امامة القوم في حلقات العلم واللغة . وانه ليقول في بعض ذلك عن نفسه من قصيدة طويلة رواها ياقوت ج ١٢ ص ٩٧ .

أخي فخر ما خره

عقائل عقله الأدب

بيت بفاتن الأنقا

ب عن أسرارها الغيب

فمن جدد الى جلد

الى صعد الى صيب

ويقرع فكره الأبكاء

ر منها من حمى الحجب

فيردها وكان بها

وان خفيت سننا لهب

بساطة مذهب سبكت
عليه مائة الذهب
وطى للفروع على
أصول وطد رتب
اذا ما انحط غائرها
سما فرعا على الرتب
الى أن قال :

فان أصبح بلا نسب
فعلمي في الوري نسبي
على أنني أوول الى
قروم سادة نجب
قيصرة اذا نطقوا
أرم الدهر ذو الخطيب
أولاك دعا النبي لهم

كفى شرفا دعاء نبي

وقد فهم بعض المتسرعين من فخره بروميته ما يشي ببعض الشحوية لديه وهو فهم متسرع لا يصدر عن اطمئنان متأن . اذ أن كتب الرجل تنفج عن العرب وتدافع عنهم بما يدافع به أعرق المتسعين الى العروبة حسبا وأصالة، وله في وصف البداية عبارات جزلة تدل على اعجاب فائق وتقدير متأصل . وفرق بعيد بينه وبين أبي نواس وبشار وأضرابهما ممن يفتخرون بعجميتهم عن تيه سلف واعتزاز يحقر كل ما يمت الى العروبة بسبب . وقصارى أمر ابن جنى حين قال :

على أنني أوول الى
قروم سادة نجب

أنه ينبغي عن أن الروم كانوا سادة ذوى شرف
كسؤدد العرب وشرفهم فهو لا يزيد في ذلك عن
قول مهيار :

فجمعت المجد من أطرافه

سؤدد الفرس ودين العرب

ولكن الذين يتلمسون مواضع النقص تلمسا يغفلون عن حقائق الدوافع النفسية حين يتعجلون بالصاق الشعوبية بأمثال ابن جنى المترشحين ذوى الوقار والاتزان ، ولو قرموا القصيدة جميعها لعلموا أن الفخر بالروم نطق به الشاعر جبرا لخلل يحسه لا زراية يقوم يتفياً ظلال لغتهم ويتصدر رياسة فضلائهم فى البحث والتأليف ويقول فى صراحة سافرة ان علمه بالعربية هو نسبه الأصيل .

اساتذته

وقد أخذ اللغة والأدب والنحو والتصريف عن كبار الأعلام فى عصره من أمثال أحمد بن محمد الموصلى وأبى بكر محمد بن الحسن راوية ثعلب وأبى الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني ، الا أن انتفاعه بأبى على الفارسي كان أعم وأشمل فقد صحبه قرابة أربعين عاما صحبة مدارس ومذلة حتى كان منه بمنزلة سيويه من الخليل ، وكان ابن جنى يباهى به ويدون آراءه فى اعتزاز ولا تمنعه أستاذية أبى على من مخالفته فى بعض ما يرى فيه وجها للمخالفة ، كما يتجلى واضحا فى تأليفه . وقد ذكروا أن ابن جنى قد تصدر للتدريس فى سن مبكرة ، اذ جلس لقراءة النحو بالمسجد الجامع بالموصل فاجتاز به أبو على الفارسي وقد تجمع الناس من حوله فسأله عن مسألة من مسائل التصريف فقصر فيها فقال له أبو على : لقد زببت وأنت حصرم . يريد أنه تصدر للتدريس قبل الأوان . فانقطع أبو الفتح وسأل عنه فقيل هذا أبو على الفارسي امام العربية فى

عصره فلزمه من يومئذ ، وقد غنى بالتصريف عناية تامة فما أحد أعلم به منه ولا أقوم بأصوله وفروعه فى تأليفه منذ عكف على مدارسته ونخله ، وظاهر هذه الرواية التى نقلها ياقوت أن أبا الفتح لم يكن رأى أبا على قبل أن يجلس مجلسه بمسجد الموصل ، ولكن ابن خلكان يروى غير ذلك . اذ يذكر أنه قرأ الأدب على أبى على ثم فارقه دفعة للإقراء بالموصل فاجتاز به شيخه فرآه فى حلقة والناس من حوله يشتغلون عنه فقال له : تزببت وأنت حصرم فترك حلقة وتبعه ولازمه حتى تمهر ، فرواية الوفيات تنص على أن أبا الفتح قد درس على أبى على منذ صغره ، وهى أقرب الى الصواب . اذ لا يعقل أن يمر أبو على الفارسي بمسجد الموصل وفيه جلة الدارسين ثم لا يعرفه أحد حين يجلس مجلسه من أبى الفتح ، مع أن مثله من الجهارة والذيوخ بحيث يقوم له علماء المسجد فور وصوله يأخذون عنه ويرحبون بمقدمه ، ومهما يكن من شىء فقد اصطحب التلميذ والأستاذ قرابة أربعين عاما لا يكادان يفترقان فى حل وترحال اذ ألف الأستاذ تلميذه وقدر ما لمس من دلائل نبوغه فكان رفيق الطعن والاقامة صحبه فى بلاط سيف الدولة الحمداني فى حلب وفى حضرة عضد الدولة البويهى فى فارس ، واذا كان أخذ أبى الفتح عن أبى على محالا لا يستغرب فإن التلميذ قد استحصد وآتى أكله فى عين أستاذه فكان يسأل عنه اذا استشكل رأى فى معاضله ونضرب الأمثلة على ذلك بمثل ما جاء فى الخصائص ج ١ ص ٣٦٥ « وقلت مرة لأبى على رحمه الله قد حضرني شىء فى علة الاتباع فى نقيذ ، وان عرى عن أن تكون عينه حلقية وهو قرب القاف من

الحاء والغين فكما جاء عنهم التخير والرعيف كذلك جاء عنهم « التقيذ » فجاز أن تشبه القاف لقربها من حروف الحلق بها كما شبه من أخفى النون عند الحاء والغين إياهما بحروف الفم فالنقيذ في الاتباع كالمنخل والمنفل فيمن أخفى النون فرضه نفيه .

وقد عرض محققو كتاب « سر صناعة الاعراب لابن جنى » وهم الأساتذة مصطفى السقا ومحمد الزفزاف وابراهيم مصطفى وعبد الله أمين الى تحليل هذه الصحبة الطويلة بين الأستاذ والتلميذ تحليلًا يؤيده السداد الثاقب نجمله فيما يلي :

١ - احتياج كل من الرجلين الى صاحبه : فابن جنى طامح ناشئ يتكئ على صيت أستاذه وجاهه ، وأبو على فى حاجة الى خدمة شاب مثقف بصير يذلل متاعب حياته ويسعفه بما يوفر وقته فى البحث والتتقى اذ يميل اليه ما يحتاج الى كشف وتنقيب .

٢ - توافقهما توافقًا تامًا فى الأخلاق والآراء ، فلم يرد فى تاريخهما ما يعكر صفاء المودة ، وقد كانا فى العقيدة معتزلين ولم يكونا شيعيين مع ما كانا فيه من نعم البويهيين وهم شيعيون ، وكانا على مذهب واحد فى النحو وهو المذهب البصرى ، ثم لا يابيان أن يأخذًا عن غير البصريين من الكوفيين والبغداديين وغيرهم ، وكلاهما لا يبالي أن يخالف صاحبه ولا أن ينزل عند رأيه أو رأى غيره ، وكلاهما كان متوسمًا فى القياس الى حد بعيد ، واسع الأفق فى النظر والاستدلال .

٣ - ما كان بينهما من الحب والاعتزاز المتبادلين فكل منهما يفرض فى الثناء على صاحبه قولاً وعملاً ولا ثناء أقوى من اتصال الصحبة ودوام اللقاء

هذا مجمل ما ذكره محققو سر الصناعة فى مقدمته الجزء الأول ، وقد نقل الأستاذ العالم المغفور له الشيخ محمد النجار فى مقدمة الجزء الأول من الخصائص نصوصاً من كتبه تدل على اعتزاله الصريح ص ٤٢ ، ٤٣ من المقدمة وعقب عليها بقوله الدقيق ص ٤٤ .

على أن ابن جنى لا يتقيد بمذهب المعتزلة ويذهب الى ما يراه الحق وما هو أدنى الى النصفة . ومن ذلك ما نراه فى كلامه عن اللغة وهل هى اصطلاح أو توقيف ، فقد ذكر رأى التوقيف ثم قال فى الخصائص ج ١ ص ٤١ « واذا كان الخبر الصحيح قد ورد بهذا وجب تلقيه والانطواء على القول به ، وهذا منهج أهل السنة وهو فى هذا البحث يتوقف فى شأن اللغة مخالفاً مذهب الاعتزال وهو الجزم بأنها اصطلاح وتواضع . وتراه فى ص ٤٨ فى مبحث علل العربية يذكر أن علل الفقه أعلام وأمارات لوقوع الأحكام . وذلك منهج أهل السنة ، لأن المعتزلة يرون أن علل الفقه مؤثرة فى الأحكام الشرعية باعثة عليها .

الرأى فى تشيعه

هذا ما يخص اعتزال ابن جنى ، أما ما يخص تشيعه فقد حرص أكثر مؤرخيه على أن ينفوا هذا التشيع عنه . مع أن مظاهر التشيع بادية فى قوله وفعله . فهو يذكر أمير المؤمنين علياً كرم الله وجهه بالصلاة عليه دأب الشيعة كقوله فى باب الاشتقاق الأكبر « ومنه قول على صلوات الله عليه : الى الله أشكو عجرى وبجرى » كما كان يستن سنة آل بويه فى الأخذ برسوم الشيعة محتفلاً محتشداً ، وقد قيل فى ذلك انه يصانع الرؤساء فقط ، وذلك مما يشينه لو صح لأن

التشيع المعتدل ليس موضع مؤاخذه يلجأ الى المصانعة ، وما نظن ابن جنى جاوز حد الاعتدال فى هذا التشيع ، وأوضح ما يدل على تشيعه الخالص أنه سعى أولاده الثلاثة عليا وعلاء وعاليا فى حرص أكيد على المادة المعزوة الى أمير المؤمنين كرم الله وجهه وكان فى تسميته ولداً واحداً بعلى ما تتم به المصانعة المزعومة لو صحت لدى التحقيق ، أما أخذه مأخذ البصريين فى النظر النحوى فلم يكن على وجه الالتزام المطلق . وهذا ما يدل على تحرر فكرى واسع يضيق بأمثال ابن جنى عن التقيد فى دائرة محدودة ، وكأنه يرى نفسه وارثاً لكل عالم فى العربية سبق برأى جيد بصرياً كان أم كوفياً أم بغدادياً ، وقد كان كثير النقل عن ثعلب والكسائى كما كان يكثر عن المبرد وسيبويه ، وولوع مؤرخى النحاة بتقسيم العلماء الى مدارس علمية هو الذى يقصر عالماً متعدد الأنحاء على نحو واحد فى رأيهم حين ينظرون الى طابعه العام دون تدقيق ، وإذا كان ابن جنى قد خالف أستاذه الحبيب أبا على دون أن يتعصب لكل ما قال فهو أكثر مخالفة لغيره اذا اتضح له من النظر القوى ما يدعو الى هذا الخلاف .

مذهبه الفقهي

وقد استظهر الأستاذ النجار فى مقدمة الخصائص أن ابن جنى كان حنفى المذهب لنصوص توحى بذلك من مثل قوله « وكذلك كتبه محمد بن الحسن رحمه الله انما ينتزع أصحابنا منها العلل لأنهم يجدونها منبوتة فى أثناء كلامه يتجمع بعضها الى بعض بالملاطفة والرفق ، الخصائص ج ١ ص ١٦٣ فقله أصحابنا يعنى به أتباع أبى حنيفة ، الى شواهد أخرى تنحو هذا المنحنى ،

وكان قياس أبى حنيفة كان الملهم له فى كثير مما عاجله من الأقيسة الصرفية ، هذا الى وقوفه على الجدل الكلامى عند المعتزلة ، وكان فروع العلم جميعها أصبحت روافد تزيد من أفقه الاستنباطى بل انها تعدت ميدان البحث العلمى الى مضمار السلوك الخلقى فأورثت صدره رحابة فسيحة تسع لمضايقات الحياة التى لا يلقاها الا ذو حظ عظيم من النظر البعيد ، ومن هنا جاء تغاضيه المتساهل عن مضايقات ذوى السماجة من معاصريه كذلك كان زميله النحوى على بن عيسى الربيعى على شذوذ مطبق فى تصرفاته الشخصية فكان يصادف من أبى الفتح صدرا فسيحا وربما جاراها فى بعض شذوذه ابقاء على رضاه .

ويظهر أن احساسه بعوره لم يكن بالغ الشدة ، اذ أشار اليه أكثر من مرة فيما نظم من الأبيات ، وبعض ذوى العاهات الحسية يتجاهلون آفتهم فلا يلمون بها فيما يدعون من قول ولن يدل ذلك على استخفاف بها قدر ما يدل على اهتمام غلا . فكتب كل هاجس يوحى بالقصور . ومما نظمه أبو الفتح فى ذلك قوله متشوقا لبعض أصدقائه :

صدودك عنى ولا ذنب لى

دليل على نية فاسدة

فقد وحياتك مما بكيت

خشيت على عيني الواحدة

ولولا مخافة ألا أراك

لما كان فى تركها فائدة

وهى أبيات تعطى المثال الجيد لنظم ابن جنى ، اذ أن خاطره كان يسنح بين الفينة والفينة بقصائد جيدة يندر أن وجود بها عالم تخصص فى التصريف والاشتقاق ، وقد روى ياقوت قرابة مائة بيت من

جيد القول • منها رثاؤه للمتنبى ، وقصيدته عن نفسه التى استشهدت ببعضها فيما سلف ومن جيد غزله قوله :

تجيب أو تدرع أو تقبى

فلا والله لا أزداد حبا (١)

أخذت ببعض حبك كل قلبى

فان رمت المزيد فهات قلبا

وقوله :

غزال غير وحشى

حكى الوحشى مقلته

رآه الورد يجنى الورد

فاستكساه حلتته

وشم بأنفه الريحا

ن فاستهداه زهرته

وزاقت ريحه الصهبا

فاختلسته نهكته

فى بلاط سيف الدولة

وهيام ابن جنى بالشعر الجيد قد دفعه الى مخالطة كبار الشعراء وعقد أواصر المودة معهم ومنهم على عكس ما كان شاعرا فى بلاط سيف الدولة بحلب وبلاط عضد الدولة بفارس من كافة النحويين لمعاصريهم من الشعراء وترصدتهم ما يقولون بعين النقد الفاحص ارتقابا لزلة لغوية أو هفة نحوية وكأنهم ينفسون عليهم جهازة الصيت بين العامة والخاصة معادونهم اذ ينكمش ذبوعهم العلمى فى نفر من الدارسين ، واذا كان أبو الطيب شاعر العربية الأكبر لوقت ابن جنى قد منى بعداوة ابن خالويه وأبى على الفارسى الى حد أسال دمه بمفتاح ابن خالويه فى مجلس سيف الدولة فان

(١) تجيب : ألبس الجبة

تدرع : ألبس المدرعة وهو ثوب من الصوف

تقبى : ألبس القباب •

ابن جنى وحده من كبار العلماء هو الذى اغتفر لأبى الطيب تعاليه الشامخ وتكبره الزاهى ففض طرفاً عن ذلك ليصل الود بينه وبين الشاعر الكبير ولم ير أنفة فى أن يحضر مجالسه ليقرأ عليه ديوانه ويناقشه فيما يعن له من الآراء مناقشة تردد صداها فيما كتبه ابن جنى من شرح على الديوان اذ يقول فى بعض ما قال • كنت أقرأ ديوان أبى الطيب عليه فقرأت عليه قوله فى كافور :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب

وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب

حتى بلغت الى قوله :

ألا ليت شعرى هل أقول قصيدة

فلا أشتكى فيها ولا أتعجب

ولى ما يذود الشعر عنى أقله

ولكن قلبى يا بنة القوم قلب

فقلت له : يعز على كيف يكون هذا الشعر

فى مدح غير سيف الدولة •

فقال المتنبى : حذرناه وأذرناه فما نفع ألسنت

القائل فيه :

أخا الجود أعط الناس ما أنت مالك

ولا تعطين الناس ما أنا قائل

وهو الذى أعطانى كافورا بسوء تقديره وقلة

تمييزه •

وجواب المتنبى لا يخلو عن تعاضد دفعه الى سب

سيف الدولة على حبه اياه ، وهى شنشنة نعرفها

لدى من يرفعون أنفسهم على النظراء دون نظر

خلقى يعصم من الجموح •

ثقة المتنبى به

وفى ترجمة ياقوت لأبى الفتح أن المتنبى سئل

بشيراز عن معنى قوله :

وكان ابنا عدو كاثرا

له يائي حروف أنيسان

فقال : لو كان صديقا أبو الفتح حاضرا لعزه ،
كما قال عن ابن جني هذا رجل لا يعرف قدره
كثير من الناس ، وقد سئل المتنبي ذات مرة عن
قوله :

باد هواك صبرت أم لم تصبرا

فقال له : كيف أثبت الألف في تصبرا مع
وجود لم الجازمة . فقال المتنبي : لو كان أبو الفتح
هنا لأجابه ، وإحالة الإجابة على أبي الفتح أكثر
من مرة تدل على اعتقاد حسن فيه من شاعر لا يكاد
يعتقد الحسن في غيره من الناس ، وقد جاء في
الجزء الرابع من مسالك الأبصار أن المتنبي كان
إذا سئل عن معنى قاله ، أو توجيه أعراب حصل
فيه أعراب دل على أبي الفتح وقال : عليكم
بالشيخ الأعور ابن جني فسلوه فانه يقول ما أردت
وما لم أرد ، وما أظن المتنبي ينز صاحبه هذا
البنز الا أن يكون في مجال الدعابة ، وهي ثقيلة
يضيق بها أبو الفتح لو طرقت سمعه ، على أن
ابن جني قد بذل الجهد في الاعتناء بشعر صديقه
اذ شرح ديوانه شرحين . شرحا كبيرا ، وشرحا
صغيرا . ولم يسلم شرحه من انتقاد معاصريه .
وأشدّهم قسوة عليه صديقه علي بن عيسى
الربيعي الذي ألمنا ببعض صفاته اذ وضع كتاب
سماه التنبيه على خطأ ابن جني في تفسير شعر
المتنبي . ثم رثاه بقصيدة رائعة تدل على حسرة
وتلدد وقد ذكر منها ياقوت أبياتا جيدة ختمها
بقوله :

عمرت خدن المساعي غير مضطهد

كالنصل لم يدنس يوما ولم يعب

فاذهب عليك سلام المجد ما قلقت
خوص الركائب بالأكوار والشعب

مع الشريف الرضي

ولم يقتصر احتفاء ابن جني على أبي الطيب
وحده . بل كان يقدر كل نابغ من الشعراء حتى
ولو كان من طبقة تلاميذه ، اذ كان يعمد لشعر
الشريف الرضي وقد أصدر كتابه تفسير العلويات
ليشرح أربع قصائد مختارة من شعر الشريف
كل واحدة في مجلد خاص كما قال ياقوت ،
وقد عد منها ثلاثة فقط هي مرثية الجياد في ابراهيم
بن نصر الدولة . والصاحب بن عباد ، وأبي
اسحاق الصابي . وكأنه لم يكن يقف على القصيدة
الرابعة فأغفلها ، واذا كان الوفاء من خلق
الشريف الرضي فقد قدر لشيخه احتفاءه الجم
بشعره فأكبره حيا ورثاه ميتا بقصيدة من عيون
شعره جاء فيها :

لتبك أبا الفتح العيون بدمعها

وألستنا من بعدها بالمناطق

اذا هب من تلك الغليل بدمع

تسرع من هذى الغرام بناطق

شقيقي اذا التأت الشقيق وأعرضت

خلائق قومي جانبا عن خلائقي

وكل ذلك ينبئ عن مشاركة جيدة من أبي

الفتح في الخالص التقى من لباب الشعر بعيدا عن

غوامض التصريف ومصاعب الاشتقاق مما سلخ

فيه عمره الطويل .

حديثه مع الأعراب

كانت عقلية ابن جني تغريه بالتبع والاستقراء

ليجئ قياسه سليما مضبوطا قدر الطاقة . وكأنه

لم يكنف بالالمام بكل ما وقع بين يديه من كتب

غير محس لما أريده منه . والجماعة معى على غاية الاستغراب لفصاحته . فقلت له فدع هذا . اذا أنت مررت بابل محرّنجمة وأخرى محرّنجمة تقول مررت بابل ماذا ؟ فقال :

مررت بابل محرّنجمات ، وأقام على التصحيح البتة استيحاشا من تكسير ذوات الأربعة لمصاحبتها ذوات الخمسة التى لا سبيل الى تكسيها ولا سيما اذا كان فيها زيادة ، والزيادة قد تمتد فى كثير من المواضع اعتداد الأصول حتى انها لتلزم نحو كوكب وحوشب . وهذا موضع يحتاج الى اصفاء اليه وارعاؤه عليه والوقت لتلاحمه وتقارب أجزائه مانع منه ويعين الله فيما يليه على المعتقد المنوى فيه بقدرته . وسألته يوما كيف تجمع سرحانا ؟ فقال سراحين ، قلت فدكانا قال دكاكين . فقلت فقرطانا قال قراطين . فقلت فعثمان قال عثمانوز . قلت هلا قلت عثمانين كما قلت سراحين وقراطين فأبأها البتة وقال : ايش ذا ؟ أى أى شىء . أرايت انسانا يتكلم بما ليس من لفته والله لا أقولها أبدا استوحش من تكسير العلم اكثارا له لا سيما وفيه الألف والنون اللتان بابهما فعلان الذى لا يجوز فيه فعالين نحو سكران وغضبان .

وكتاب الخصائص يحفل بنماذج كثيرة كهذين النموذجين اذ سجل فيه ابن جنى معظم خبراته العلمية مع البادين من الفصحاء منتسبا الى أحدث مدارس المعرفة حين فضل الاتصال المباشر كطريق للمعرفة الصحيحة مثله فى ذلك مثل الجاحظ حين رحل الى البادية يقرر بطون الحيات والعقارب ليقف عن عيان على حقائقها التشريحية ، وما السؤال عن جمع محرّنجم وثمان ودكان الا بعض مشاهد التجربة اللغوية فى أخص بيئاتها

السابقين فرأى أن يشافه من بقى من فصحاء العرب لعهد مشافهة متفرسة توضح غرائب الجموع وتعين على تحديد أصول الكلمات ، وقد تعهد ألا يأخذ عن بدوى دون امتحان يكشف معدنه فى الفصاحة ، فاذا وجد انحرافا فى حرف واحد أهمله الى الموثوق بهم من الفصحاء ، وأشهر من عرف بالأخذ عنه أبو عبد الله محمد العقيلي ، وأبو الوفاء الأعرابي ، وله مع الأول طرائف علمية لها دلالتها الواضحة ننقل منها عن ياقوت هذين النصين ج ١٢ ص ١٠٦ وما بعدها .

١ - قال ابن جنى وسألت الشجرى صاحبنا : يا أبا عبد الله كيف تقول : اليوم كان زيد قائما ؟ فقال : كذلك قلت فكيف تقول : اليوم ان زيدا قائم . فأبأها البتة . وذلك أن ما بعد « ان » لا يعمل فيما قبلها لأنها انما تأتى أبدا مستقبلة قاطعة لما قبلها عما بعدها ، وما بعدها عما قبلها ، قلت له يوما ولابن عم له يقال له غصن ، وكان أصغر منه سنا وألين لسانا ، كيف تحقران حمراء فقالا : حمراء ، قلت : فصراء قالا صفراء . قلت فسوداء قالا سيوداء . واستمرت بهما فى نحو هذا فلما استويا عليه دست بين ذلك « علباء » فأسرع ابن عمه على طريقته « علياء » وكاد الشجرى يقولها معه فلما هم بفتح الباء استرجع مستكرا فقال : اه علبى وأشم الفتحة دائما للحركة فى الوقف وتلك عادة .

٢ - قال ابن جنى : وسألته كيف تجمع محرّنجما وكان غرضى من ذلك أن أعلم ما يقوله أيكسر فيقول حراجم أم يصحح فيقول محرّنجمات ، فذهب هو مذهبا غير هذين فقال : وأين فرقه حتى أجمعه ، وصدق ، وذلك أن المحرّنجم هو المجتمع يقولها مارا على شكيمته

الفصيحة ، وبذلك امتاز أبو الفتح بدراية واسعة أكملها بألمية متألفة تضع كل شيء موضع التعليل والتأمل ، وهذا ما برع به على قرنائه من تلاميذ أبي على الفارسي فقدمه رؤساء عصره في حلب وشيراز وبغداد . وبلغ من آل بويه مبلغا عاليا ينسب عن اجلال مرموق وأحله مؤرخو العربية بعد رحيله أكرم محل وأعلام .

ويقول صاحب معجم الأدباء انه من أحذق أهل الأدب وأعلمهم بالنحو والتصريف . صنف في ذلك كتباً أبر بها على المتقدمين وأعجز المتأخرين ولم يكن في شيء من علوم أكمل منه في التصريف . ولم يتكلم أحد في التصريف كلاما أدق منه ص ٨٢ ج ١٨ فان أبا الحسن البخارزي قد قال عنه ليس لأحد من أئمة الأدب في فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له ولا سيما في علم الاعراب فقد وقع عليها من ثمرة الغراب ، ومن تأمل مصنفاته وقف على بعض صفاته .

بعض ما قاله المعاصرون عنه

أما الكاتبون في عصرنا الحاضر فقد قدروا للرجل سبقه المحلى في أكثر من ميدان فقد جمع الدراسات الصوتية التي نشأت ضئيلة عند الخليل وسيبويه حتى أكملها مستوفاة بارزة في كتاب سر صناعة الاعراب وهو ما حدثنا عنه محققو سر الصناعة اذ يقولون ص ١٣ ج ١ .

« ومن أحسن ما عرض له العرب في دراسة الأصوات ما نجده عند الخليل من وصف الجهاز الصوتي وهو الحلق والقم الى الشفتين وتقسيمه

اياء الى مناطق ومدارج تختص كل منها بحرف أو مجموعة حروف ، وما أشار اليه الخليل أيضا من ذوق الحروف لبيان حقيقة المخرج فقد هدى بذكائه المتفوق في ذلك الى مقاييس صحيحة أقر كثيرا منها علماء الأصوات المحدثون وكذلك قوله في الحركات انها أبعاض حروف المد ، واختراعه علامات الضبط التي لا تزال نستعملها حتى اليوم من ضمة وفتحة وكسرة وقد نجد هذه المباحث عند ابن جنى في سر الصناعة موضحة مينة بيانا شافيا كما نجد عنه شيئا جديدا لعله اقتبسه من دراسات الفلاسفة للأصوات وهو تشبيه الحلق بالناى (الزمار) وتشبيه مدارج الحروف ومخارجها بفتحات هذا الزمار التي توضع عليها الأصابع وهى لمحة تدل على قوة ملاحظة وصحة فهم .

أما الدكتور أحمد أمين رحمه الله فقد أنصف ابن جنى في أكثر من موضع في الجزء الثانى من ظهور الاسلام اذ أشار لسبقه الى تحطيم نظرية العامل في النحو ونقل قوله ص ١١٧ ج ٣ فى الخصائص . وأما فى الحقيقة ومحصول الحديث فالحرركات من الرفع والنصب والجر والجزم انما هى للمتكلم نفسه لا لشيء غيره .

ثم ذكر الدكتور تعليل ابن جنى لذلك بأن لفظة ضرب قد انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن أن تكون عاملا فى زيد أو عمرو فليس الفعل عاملا فى الفاعل ولا المفعول ، وليست « ان ، تنصب المبتدأ وترفع الخبر ولا كان ترفع المبتدأ وتنصب الخبر ، وليس المبتدأ مرفوعا بالابتداء . فهذا كلام لا معنى له ، وليس الخبر مرفوعا بالمبتدأ كذلك وهو رأى سبق به ابن جنى وجاء ابن مضاء

القرطبي فتوسع فيه توسعا ظهر أثره في الدراسات المعاصرة التي دعت الى تيسير النحو • وابن جنى واضع البذرة دون ليس عند حديثه عن اللغة والأدب بكتاب الخصائص الذي يضع للنحو واللغة أصولا كأصول الفقه معتمدا على ما يسمى بالاشتقاق الكبير مرادا به حصر أصول الكلمة وتقلبها على وجوهها المختلفة واستخراج التباديل والتوافيق منها مع المقارنة بينها في المعاني وسنخص كتاب الخصائص هنا بإيضاح بصير ، وكفا أبا الفتح فخرا أن آراءه تقابل بالاستطراف والجددة في عصرنا الحديث •

مؤلفاته

أكثر أبو الفتح من التأليف في علوم العربية كثارا يدل على أنه شغل وقته جميعه فيما يفده لا سيما أن الطابع العام لمؤلفاته طابع دراسة وتحقيق لا جمع وتبويب • ومثل هذا الطابع يتطلب فسحة كبيرة من الوقت في العلاج الدائب للمتويات المباحث ومتشعبات المعاني ثم المصياغة الحرة الناصعة ذات الرصانة العلمية الفاقية ، وقد سجل أستاذنا البجامة المغفور له الشيخ محمد على النجار فهرس مؤلفاته في مقدمة الجزء الأول من الخصائص ما بين ص ٦٠ ، ٦٨ في طبعته الثانية عن دار الكتب المصرية فأعز الباحثين بعده من تتبع هذه المؤلفات • اذ وفق توفيقا كبيرا في استيعابها عن تنقيب لا يتاح الا لمن برع براعته في البحث الصابر والنظر الطويل • حتى أن محققى كتاب « سر الصناعة » وهم من كبار الباحثين في « مصر » قد اكتفوا باستيعاب الأستاذ النجار ورأوا ألا مزيد وراءه لباحث فأحالوا عليه مقدرين •

وها هي ذى مؤلفات أبى الفتح •

١ - الخصائص • وسيأتي الحديث عنه ببعض التفصيل •

٢ - التمام في تفسير ما أغفله السكرى من أشعار الهذليين •

٣ - سر الصناعة في ثلاثة أجزاء وقد بدأت في نشره مكتبة الحلبي سنة ١٩٥٤ بتحقيق الأستاذ مصطفى السقا وزملائه • أما نسخته الخطية فكثيرة •

٤ - تفسير تصريف المازني وهو شرح لتصريف المازني أسماء النصف •

٥ - شرح مستغلق أبيات الحماسة واشتقاق أسماء شعرائها •

٦ - شرح المقصور والمدود لابن السكيت •

٧ - تعاقب العربية في الأشباه والنظائر النحوية ذكره السيوطي •

٨ - تفسير ديوان المتنبي الكبير ويسمى المفسر

٩ - تفسير معاني ديوان المتنبي وهو الشرح الصغير •

١٠ - اللمع في العربية جمعه من كلام شيخه أبى على الفارسي •

١١ - مختصر التصريف طبع بشرح ابن يعيش

١٢ - مختصر العروض والقوافي • يوجد في مكتبة برلين •

- ١٣ - كتاب الألفاظ المهموزة • ذكر بر كلمان
أنه طبع مع المقتضب •
- ١٤ - المقتضب في اسم المفعول المقتل العين من
الثلاثي • طبع في ليزج والقاهرة •
- ١٥ - تفسير المؤنث والمذكر ليعقوب •
- ١٦ - تأييد تذكرة أبي على •
- ١٧ - المحاسن في العربية ذكره صاحب كشف
الظنون •
- ١٨ - النوادر الممتعة ورد ذكره في الحصائص •
- ١٩ - الحاطريات يقول انه مما أحضرني من
المسائل المثورة •
- ٢٠ - المحتسب في شرح شواذ القراءات يوجد
مخطوطا منه •
- ٢١ - تفسير أرجوزة أبي نواس •
- ٢٢ - تفسير العلويات (قصائد الشريف الأربع
وقد أشرت إليها) •
- ٢٣ - كتاب البشرى والظفر في تفسير بيت
شعري لمناسبة سياسية •
- ٢٤ - رسالة في مد الأصوات ومقادير
المدات •
- ٢٥ - كتاب المذكر والمؤنث •
- ٢٦ - كتاب النقض على ابن وكيع في شعر
المتنبى ومخطئته •
- ٢٧ - العرب في شرح القوافي •
- ٢٨ - الفصل بين الكلام الخاص والكلام العام •
- ٢٩ - كتاب الوقت والابتداء •
- ٣٠ - كتاب المعاني المجردة •
- ٣١ - كتاب الفرق •
- ٣٢ - كتاب الفائق •
- ٣٣ - كتاب الخطيب •
- ٣٤ - كتاب الأراجيز •
- ٣٥ - كتاب ذي القد •
- ٣٦ - شرح الفصيح لثعلب •
- ٣٧ - شرح الكافي في القوافي •
- ٣٨ - التلقين في النحو •
- ٣٩ - التذكرة الاصبهانية •
- ٤٠ - التهذيب تهذيب التذكرة لأبي على •
- ٤١ - المهذب •
- ٤٢ - التبصرة •
- ٤٣ - كتاب الزجر •
- ٤٤ - مسألان من كتاب الايمان •
- ٤٥ - علل التثنية •
- ٤٦ - المسائل الواسطية •
- ٤٧ - شرح الابدال ليعقوب •
- هذا ثبت مؤلفاته كما رواه الأستاذ النجار مع
حذف كتابين تكرر ذكرهما في غير ضرورة •
وهو ثبت يدل على تشعب ثقافة وافية عميقة
متسعة •

استعان في باب الاشتقاق الكبير بما نص عليه من أن أسباب التسمية اللغوية قد تخفى لبعدها في الزمان احتجاجا بقول سيبويه « ولعل الأول وصل اليه علم ما لم يصل الى الآخر » وضرب المثل لذلك ص ٦٦ بقولهم للانسان اذا رفع صوته رفع عقيرته « فلو ذهبت تشتق هذا بأن تجمع بين معنى الصوت ومعنى عقر لبعد عنك وتعسفت » وكأنه وجد القول في حاجة الى تكرار فأعاده ص ٢٤٨ مستشهدا مؤيداً ، وهذا الفصل المقصور على ذكر علل العربية أحفل ما بالخصائص شاهدا واستنباطاً ، فاذا أضيف الى الباب الأول في الكتاب أعطى الصورة التامة لما يريده ابن جنى وأبو على من الاشتقاق الكبير .

ثم تابع القول عن الاطراد والشذوذ معتمداً على توجيه الأمثلة الشاذة نحواً وتصريفاً بما لم يسبق في أكثره ثم متعرضاً الى نقاط لا تزال حتى عصرنا الراهن موضع الجذب والدفع بين علماء اللغة دون أن يميل بها الزمن الى استقرار مطمئن وذلك مثل جواز القياس على القليل والحكم في تعارض السماع والقياس حتى اذا وافى ذلك حقه رجع الى التفرقة بين علل المتكلمين والنحاة فغضب أمثلة كثيرة للاعلال والابدال مفترقا بين العلة الموجبة والعلة المجوزة ، والحق أن حديثه عن العلل الصرفية ينهض علماً قائماً بذاته يطلق عليه « علم أصول التصريف » كما أطلق « علم أصول الفقه » على أوجه النظر الفقهية في التشريع ولك أن تقرأ ما خطه في هذا السيل مثل كلامه عن تعارض العلل وعن علة العلة وعن حكم المعلول بملتين وعن ادراج العلة واختصارها ثم عن اجماع العربية ومتى يكون حجة مخالفاً

واذا كان من هدفنا اليوم أن نتحدث عن كتاب الخصائص فلأنه من أوسع كتبه بسطاً لمذهبه في الاشتقاق الكبير وما ينحو نحوه من مباحث القياس ذاكراً في مقدمته أن أبا الحسن سعيد بن مسعدة الشهير بالأخفش الأوسط قد صنف في شيء من المقاييس كتباً صغيراً سبق به « اذا أنت قرنته بكتابنا هذا علمت بذلك أننا نبنا عنه فيه وكفيناك كلفة التعب به وكافأناه على لطيف ما أولأناه من علومه المسوقة اليها المفيضة ماء البشر والبشاشة علينا » واذا كان مؤلف الأخفش كتباً صغيراً وكان الخصائص على ما نرى من السعة والبسط والشمول . فإن المقارنة بينهما على فرض وجود نسخة من كتاب الأخفش مما تحفظ لابن جنى جهده الجاهد في ابتكار الكثير من مسائل الخصائص ويا لها من مسائل .

عرض تحليلي

بدأ ابن جنى حديثه في الخصائص عن الاشتقاق الأكبر فأوضح فائدة تقليب الحروف للمادة الواحدة مينا كيف تدور في شتى تراكيبها على مدلول قريب مثابه وأيد القول بالمشال الشاهد منتقلاً الى الحديث عن اللغة والنحو والاعراب والبناء ، ومفيضا في القول عن أصل اللغة اليام هي أم اصطلاح مينا رأيته في علل العربية : أهى من العلل الكلامية أم من العلل الفقهية ؟ ذاكراً أن الحكمة تخفى في كثير من الأحكام الشرعية دون الكلامية وقد نص على أن اهمال ما أهمل في العربية يرجع أكثره الى الاستفقال . وقد

الاجماع فى « جر المجاورة » وملتصبا وجها آخر
لتصويب المثل المضروب فى ذلك ومازجا أداة
الأصوليين من الفقهاء بما يراه من الأدلة فيما يضع
من أصول التصريف ومتعرضا الى ما هو فى رأى
غيره أقرب الى مباحث النقد والبلاغة منه الى
مباحث اللغة والتصريف مثل ما أفاض فيه من الرد
على من ادعى على العرب عنايتها بالألفاظ واغفال
المعاني وهو رد سبق ابن جنى ببعضه . الا أن
صياغته الأدبية قد كسبه جدة قوية يعرفها قراء
أبى الفتح وهكذا ينتقل المؤلف فى أحكام أصول
التصريف متعرضا الى غوامض الاعلال حتى اذا
قضى حاجته منه رجع الى النحو فبحث فى عكس
التقدير وفى الفرق بين تقدير الاعراب وتفسير
المعنى ، وفى نقض المراتب اذا عرض هناك عارض
ثم فى غلبة الاصول على الفروع وفى ضرورات
الشعر وتدرج اللغة وتداخل اللغات مرفها عن
القارىء ببعض طرائف الاعراب ومناقشات الزملاء
والأساتذة ونوادر الشعراء والمتأدبين مما يزيل
طابع الجفاف فى مباحث غامضة لا تمت الى الرقة
بعض الأسباب .

وقد افتتح الجزء الثانى بمباحث أصيلة فى فقه
اللغة فتحدث عن ترك الأخذ عن أهل المدن كما
أخذ عن أهل الدير وعن اختلاف اللغات مع
حجتها ثم عن العربى الفصيح اذا انتقل لسانه واذا
سمع لغة غيره أيراعيا أم يطرحها وعن الشئ
يسمع من الفصيح ولا يسمع من غير مشققا الكلام
فى أمور كان يظن أنها لا تحتمل التشقيق مثل
ما سطره فى وضع اللغة كاملة أم متلاحقة حتى
اذا وضع وجهة نظره مستوفاة بالدليل والمثال
تحدث عن تداخل الأصول الثلاثية والرابعة

والخماسية وعن الحرفين المتقاربين يستعمل أحدهما
مكان صاحبه وعن اتفاق اللفظين واختلاف المعنيين
فى الحروف والحركات والسكون عائدا بالكلام الى
الاشتقاق الأكبر وهو ما أفاض فى تحليله من قبل
متلفتا الى ما لا يلتفت اليه العامة من علماء العربية
بل ما يتجه اليه خاصتهم مثل ما ذكره فى أبواب
خلع الأدلة ونقض العادة وتدافع الظاهر ، وفى
رأى أن الباب الذى عقده عن التطوع بما لا يلزم
كان موجه أبى العلاء المعرى نحو ما سلكه فى نظم
اللزوميات اذ عرض أبو الفتح من أمثلة السابقين
ما حفز المعرى الى الاقتداء بهم عن عمد وكنا قبل
قراءة هذا الباب نرى أبا العلاء قد ابتكر هذا
الضرب من النظم ابتكارا فرأينا بعد قراءة ماسطره
ابن جنى أنه متبع لا مبتدع . ولا ينكر أحد ذيوغ
الخصائص فى زمن أبى العلاء وهو منه قريب
قريب .

ولا يمكننا الآن أن نسرد جميع أبواب الكتاب
بأجزائه الثلاثة الا أننا نوجه النظر الى بعض
الفصول الهامة مثل لحوق المجاز بالحقيقة وقرار
الألفاظ على أوضاعها الأول وإيراد المعنى المراد بغير
اللفظ المعتاد ، وما يحكم به القياس مما لا يسوغ
به النطق وازدادة الاسم الى المسمى واختصاص
الأعلام بما لا يكون مثله فى الأجناس وتسمية
الفعل واجراء المتصل مجرى المنفصل وبالعكس
وانابة الحرف عن الحركة والحركة عن الحرف
والاكفاء بالسبب عن المسبب وبالمسبب عن السبب
وهو من صميم الأبحاث البلاغية التى تطرق ابن
جنى الى كثير منها دون أن يراعى له مؤرخو
البلاغة مكانة بين علمائها وكأن ما برع فيه من
التصريف قد ضال لديهم ما أسهم به فى تحليل

التركيب ونقد الأساليب وارساء بعض قواعد البيان ، ومن أطرف ما تعرض له أبو الفتح في الجزء الثالث ما ذكره عن سقطات العلماء حيث كشف الكثير من كبوات الأصمعي والفراء وأبي عبيدة ونعلب والنكسائي وغيرهم من أئمة العربية ، وهو فصل جيد مختار يدل على بصر ثاقب ونفاذ لماح وهكذا تجرى فصول الخصائص مجرى مختلف الشعاب متنوع الأفانين بحيث لا يصبر عليه غير المهرة من ذوى التحصيل المتصل والعلاج الدبوب هذه نبذة مقتضبة تشير الى كتاب الخصائص وهو فتح جديد في العربية حيث خاض أبو الفتح مخاضا عز على الكثيرين من مناظرية وشقق الكلام في أصول الاشتقاق تشقيقا بدأ به مهما قيل انه اقتبسه من مجالس أبي على أو أنه تابع السراج أو الأخفش ، لأن امتداد نفسه وجهامة صوته وحسن استدلاله مما يوحى بأنه يمتح من ذهنه وينزع عن قوسه في أكثر ما يقول .

مكانة كتاب الخصائص وأثره في علوم اللغة

وقد قال الأستاذ النجار ما نصه ص ٢٩ من المقدمة .

« لقد فتح ابن جنى في العربية أبوابا لم يتسن فتحها لسواه ووضع أصولا في الاشتقاق ومناسبة الألفاظ للمعاني وأهمال ما أهمل من الألفاظ وغير ذلك . وكان في ذلك اماما . يحتاج الى اتباع يعضون في سبيله وبينون على بحوثه واذن لنضجت أصوله وبلغت اناها ولكنه لم يرزق هؤلاء الأتباع ، »

ولعل مما عاق نمو ما اتجه اليه الخصائص من

بحوث أن لاحقيه لم يرزقوا طريقته في التعليل ولم يؤتوا بيانه في التدليل اذ أن لغة أبي الفتح كانت تمثل أرقى مستويات الأساليب البيانية مهما تحدثت عن مسائل ذات جفاف في دنيا التصريف ، والاشتقاق ، وأكثر من وليه من المؤلفين كان يتجه اتجاها علميا خالصا لا ينسج للشباع والافاضة . ولو سار التأليف العلمي نحووا وصرفا مسار الخصائص لتفجرت عيون كثيرة من ينباع العلم ، ولما تورط الكتاتون في التزام صيغ معينة أخذت تتخاذل وتكتمش حتى أصبحت كالمعميات ، وحتى احتاجت الى حواش وتقريرات ، ولكن ابن جنى كان نسيجا وحده في تأليفه العلمي . وما لدينا من تأليفه الأدبي الخالص كخطبة النكاح التي رواها ياقوت نبيء أن الرجل ذو أسلوب أدبي لا يقل عن بلفاء عصره ممن توفروا على الأدب والانشاء .

وقد نهل من الخصائص كثير ممن تابعوا بعده علما وطريقة ، وبعضهم كان كثير السطو على ألفاظه قبل معانيه كعلی بن أحمد الشهير بابن سيده صاحب المخصص والمحكم . اذ نقل الكثير من عباراته دون عزو ، وقد تتبع محقق الخصائص طرفا من هذا السطو ودل عليها في براعة واقناع . ولا يزال كتاب الخصائص متطلبا من يتصدى له دارسا مستهديا مستلهما مؤصلا لقواعد علم اللغة العربية التي نزل بها القرآن الكريم هدى للناس وبيئات من الهدى والفرقان .

النص الأول

هذا باب القول على الفصل بين الكلام والقول

ولنقدم أمام القول على فرق بينهما طرفا من

ذكر أحوال تصاريههما واشتقاقهما ، مع تقلب حروفهما ، فإن هذا موضع يتجاوز بقدر الاشتقاق ويعلوه الى ما فوقه وستره فتجده طريقا غريبا ، ومسلكا من هذه اللغة الشريفة عجيبا .

وكان أسرع الى الحركة والطف ، ومنه قولهم « اقلوليت يا رجل » قال :

قد عجبت منى ومن يعيليا
لما رأته خلفا مقلوليا

أى خفيفا للكبير (و) طائشا ، (و) قال :

وسرب كمين الرمل عوج الى الصبا
رواعف بالحادى حور المدامع
سمعن غناء بعد ما نمن نومة
من الليل فاقلولين فوق المضاجع

فأقول : ان معنى « ق و ل » أين وجدت وكيف وقعت من تقدم بعض حروفها على بعض وتأخره عنه انما هو للخفوف والحركة وجهات تراكيبها الست مستعملة كلها لم يهمل شئ منها وهى « ق و ل » ، « ق ل و » ، « و ق ل » ، « و ل ق » ، « ل ق و » ، « ل و ق » .

أى تخفض لذكره وقلقن فزال عنهن نومهن واستقالهن على الأرض . وبهذا يعلم أن لام اقلوليت واو ، لا ياء . فأما لام اذلوليت فمشكوك فيها .

ومن هذا الأصل أيضا قوله :

أوب كمقلاء الوليد خميص
فهو مفعال من قلوت بالقلعة ، ومذكرها القال ، قال الراجز :

وأنا فى الضراب قيلان القله

فكان القال مقلوب قلوت ، ويا القيلان مقلوبة عن واو ، وهى لام قلوت ، ومثال الكلمة قلعان . ونحوها عندى فى القلب قولهم « باز » ومثاله قلع ، واللام منه واو ، لقولهم فى تكسيره : ثلاثة أبواز ، ومثالها أقلاع . ويدل على صحة ما ذهبنا اليه : من قلب هذه الكلمة قولهم فيها « البازى » وقالوا

الأصل الأول « ق و ل » وهو القول وذلك أن القم واللسان يخفان له ، ويقلقان ويمذلان به (١) وهو بضد السكوت الذى هو داعية الى السكون ، ألا ترى أن الابتداء لما كان أخذا فى القول ، لم يكن الحرف المبدوء به الا متحركا ولما كان الانتهاء أخذا فى السكوت ، لم يكن الحرف الموقوف عليه الا ساكنا ، الأصل الثانى : « ق ل و » منه القلو : حمار الوحش وذلك لحقته واسراعه ، قال العجاج :

نواضح التقريب قلوا مفلجا

ومنهم قولهم « قلوت البسر والسويق » فهما مقلوان « وذلك لأن الشئ اذا قلى جف وخف ،

(١) من قولهم مذل المريض من باب فرج ، اذا لم يتقار من الضجر ، ويقال أيضا مذل : قلق .

في تكسيروها « بزاة » و « وبواز » ، أشهدنا
أبو على لدى الرمة :

كأن على أنيابها كل سدفة

صباح البوازي من صريف اللوائك

وقال جرير :

إذا اجتمعوا على « فخل » عنهم

وعن باز يصك حباريات

فهذا فاعل ؛ لاطراد الامالة في ألفه ، وهي
في فاعل أكثر منها في نحو مال وباب .

النص الثاني

حجة من قال ان اللغة لا تكون وحيا

ثم لنعد فلنقل في الاعتلال لمن قال بأن اللغة
لا تكون وحيا . وذلك أنهم ذهبوا الى أن أصل
اللغة لا بد فيه من المواضعة ، قالوا : وذلك
كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدا ، فيحتاجوا
الى الانابة عن الأشياء المعلومات ، فيضعوا لكل
واحد (منها) سمة ولفظا ، اذا ذكر عرف به
ما سماه ، ليمتاز من غيره ، وليغني بذكره عن
احضاره الى مرآة العين ، فيكون ذلك أقرب وأخف
وأسهل من تكلف احضاره ، لبلوغ الغرض في
ابانة حاله ، بل قد يحتاج في كثير من الأحوال
الى ذكر ما لا يمكن احضاره ولا ادناؤه كالفاني ،
وحال اجتماع الضدين على المحل الواحد ، كيف
يكون ذلك لو جاز ، وغير هذا مما هو جارٍ في
الاستحالة والبعد مجراه ، فكأنهم جاءوا الى واحد

من بنى آدم ، فأومثوا اليه ، وقالوا : انسان انسان
انسان ، فأى وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد
به هذا الضرب من المخلوق ، وان أرادوا سمة
عنه أو يده أشاروا الى ذلك ، فقالوا : يد ، عين ،
رأس ، قدم ، أو نحو ذلك ، فمتى سمعت اللفظة
من هذا عرف معناها ، وهلم جرا فيما سوى هذا
من الأسماء ، والأفعال ، والحروف ، ثم لك من
بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة الى غيرها ، فنقول :
الذي اسمه انسان فليجعل مكانه مرد والذي اسمه
رأس فليجعل مكانه سر ، وعلى هذا بقية الكلام .
وكذلك لو بدئت اللغة الفارسية ، فوقعت المواضعة
عليها ، لجاز أن تنقل ويولد منها لغات كثيرة : من
الرومية والزنجية ، وغيرهما . وعلى هذا ما تشاهده
الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من
الأسماء : كالنجار ، والصانع ، والحائك ، والبناء ،
وكذلك الملاح . فقالوا : ولكن لا بد لأولها من
أن يكون متواضعا بالمشاهدة والايماء ، قالوا :
والقديم سبحانه لا يجوز أن يوصف بأن يواضع
أحدا من عباده على شيء ، اذ قد ثبت أن المواضعة
لا بد معها من ايماء واشارة بالجارحة نحو المومأ
اليه ، والمشار نحوه ، والقديم سبحانه لا جارحة
له ، فيصح الايماء والاشارة بهما منه ؛ فبطل
عندهم أن تصح المواضعة على اللغة منه ، تقدست
أسماءه ، قالوا : ولكن يجوز أن ينقل الله اللغة
التي قد وقع التواضع بين عياده عليها ، بأن يقول :
الذي كنتم تعبرون عنه بكذا عبروا عنه بكذا ،
والذي « كنتم تسمونه » كذا ينبغي أن تسموه
كذا ، وجواز هذا منه - سبحانه - كجوازه من
عباده ، ومن هذا الذي في الأصوات ما يتعاطاه
الناس الآن من مخالفة الأشكال ، في حروف
المعجم ، كالصورة التي توضع للمعجمات ،

النص الثالث

(هل يجوز لنا فى الشعر من الضرورة ما جاز
للمرب أولا ؟)

سألت أبا على رحمه الله عن هذا فقال : كما
جواز أن تقيس منشورنا على منشورهم ، وكذلك
يجوز لنا أن تقيس شعرنا على شعرهم ، فما
أجازته الضرورة لهم أجازته لنا ، وما حظرته
عليهم حظرته علينا .

وإذا كان كذلك فما كان من أحسن ضروراتهم،
فليكن من أحسن ضروراتنا ، وما كان من أقيحها
عندهم فليكن من أقيحها عندنا ، وما بين ذلك
بين ذلك فإن قيل : هلا لم يجز لنا متابعتهم على
الضرورة ، من حيث كان القوم لا يترسلون فى
عمل أشعارهم ترسل المولدين ، ولا يتأثون فيه ،
ولا يتلومون على حوكه (وعمله) وإذا كان أكثره
ارتجالا ، قصيدا كان ، أو رجزا ، أو رملا .
فضرورتهم اذن أقوى من ضرورة المحدثين . فعلى
هذا ينبغي أن يكون عذرهم فيه أوسع ، وعذر
المولدين أضيق . قيل : يسقط هذا من أوجه :
أحدها أنه ليس جميع الشعر القديم مرتجلا ،
بل قد كان يعرض لهم فيه من الصبر عليه ،
والملاطفة له ، والتلوم على رياضته ، واحكام
صنفته نحو مما يعرض لكثير من المولدين .
ألا ترى الى ما يروى عن زهير : من أنه عمل
سبع قصائد فى سبع سنين ، فكانت تسمى حوليات

والتراجم ؛ وعلى ذلك أيضا اختلفت أقلام ذوى
اللغات ؛ كما اختلفت أنفس الأصوات المرتبة على
مذاهبهم فى المواضع . وهذا قول من الظهور
على ما تراه . الا أنتى سألت يوما بعض أهله ،
فقلت : ما تنكر أن نصح المواضة من الله تعالى ؟
وان لم يكن ذا جارحة ، بأن يحدث فى جسم
من الأجسام خشبة أو غيرها ، اقبالا على شخص
من الأشخاص ، وتحريكا لها نحوه ، ويسمع فى
نفس تحريك الخشبة نحو ذلك الشخص صوتا
يضعه اسما له ، ويبعد حركة تلك الخشبة نحو
ذلك الشخص دفعات ، مع أنه - عزا اسمه -
قادر على أن يقع فى تعريفه ذلك بالمرة الواحدة ،
فتقوم الخشبة فى هذا الايماء ، وهذه الاشارة ،
مقام جارحة ابن آدم فى الاشارة بها فى المواضة ؟
وكما أن الانسان أيضا قد يجوز اذا أراد المواضة
أن يشير بخشبة نحو المراد المتواضع عليه ،
فيقيمها فى ذلك مقام يده ، لو أراد الايماء بها
نحوه ؟ فلم يجب عن هذا بأكثر من الاعتراف
بوجوبه ، ولم يخرج من جهته شئ أصلا فأحكيه
عنه ، وهو عندى وعلى ما تراه الآن لازم لمن قال
بامتناع مواضة القديم تعالى لغة مرتجلة غير ناقلة
لسانا الى لسان . فاعرف ذلك . وذهب بعضهم
الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات
المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ،
وخرير الماء ، وشحيج الحمار ، ونقيق الغراب ،
وصهيل الفرس ، وتزيب الطيى ونحو ذلك ، ثم
ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى
وجه صالح ، ومذهب مقبل .

زهير ، لأنه كان يحوك القصيدة في سنة .
والحكاية في ذلك عن ابن أبي حفصة أنه قال :
كنت أعمل القصيدة في أربعة أشهر ، وأحكيها
في أربعة أشهر ، وأعرضها في أربعة أشهر ،
ثم أخرج بها الى الناس . ف قيل له : فهذا هو
الحول المنفع . وكذلك الحكاية عن ذي الرمة :
أنه قال : لما قال :

بيضاء في نعج صفراء في برج

أجبل حولا لا يدري ما يقول ، الى أن قوت
به صينية فضة (قد) أشربت ذهباً فقال :
كأنها فضة قد مسها ذهب
وقد وردت أيضاً بذلك أشعارهم ، قال
ذو الرمة :

أجنبه المساند والمحالا

ألا تراه كيف اعترف بتأنيه فيه وصنعه اياه ،
وقال عدى بن الرقاع العاملي :

وقصيدة قد بت أجمع بينها

حتى أقوم ميلها وسندها

نظر المثقف في كعوب قنانه

حتى يقيم ثقافة منادها

وقال سويد بن كراع :

أبيت بأبواب القوافي كأنما

أود بها سرباً من الوحش نزعاً

وانما يبيت عليها خلوه بها ، ومراجعته النظر

فيها . وقال :

أعددت للحرب الذي أعنى بها

قوافي لم أعن باجتلابها

حتى اذا أذلت من سمعها
واستوسقت لي صحت في أعقابها
فهذا - كما ترى - مزاولة ومطالبة واغتصاب
لها ومعاناة كلفة بها . ومن ذلك الحكاية عن
الكميت وقد افتتح قصيدته التي أولها :
ألا حيت عنا يا مدينا .

ثم أقام برهة لا يدري بماذا يعجز على هذا
الصدر ، الى أن دخل حماماً وسمع انساناً دخله ،
فسلم على آخر فيه ، فأنكر ذلك عليه ، فانتصر
بعض الحاضرين له فقال : وهل بأس بقول
المسلمين ، فاهتبلها الكميت .
فقال : وهل بأس يقول سليمان .

ومثل هذا في أشعارهم الدالة على الاهتمام بها ،
والتعب في احكامها كثير معروف . فهذا وجه .

النص الرابع

باب في تركيب المذاهب

قد كنا أفرطنا في هذا الكتاب باب تركيب
اللغات . وهذا الباب نذكر فيه كيف تتركب
المذاهب اذا ضمنت بعضها الى بعض « وأنتجت »
بين ذلك مذهباً . وذلك أن أبا عثمان كان يعتقد
مذهب يونس في رد المحذوف في التحقير وان
غنى المثال عنه . فيقول في تحقير هار : هو يثر ،
وفي يضع اسم رجل : يوضع ، وفي بالة من
قولك ما باليت به بالة : بويلية ، وسيبويه اذا
استوفى التحقير لم يردد ما كان قبل ذلك محذوفاً .
فيقول : هو ير ، ويضيع ، وبويلية . وكان

وأعلى شأنه ، أو لا يعلم أن أمير المؤمنين عليا رضي الله عنه هو البادئ ، والمنبئ عليه ، والمنشئ والمرشد اليه •

ثم تحقق ابن عباس رضي الله عنه ، واكتفال أبي الأسود - رحمه الله - إياه ، هذا بعد تنبيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عليه ، وحضه على الأخذ بالخط منه ، ثم تآلى السلف - رحمهم الله - عليه ، واقتفائهم - آخرًا على أول - طريقه ، ويكفي من بعد ما تعرف حاله ، ويتشاهد به من عفة أبي عمرو بن العلاء ومن كان معه ، ومجاورا زمانه ، حدثنا بعض أصحابنا - يرفعه - قال : قال أبو عمرو بن العلاء - رحمه الله - : ما زدت في شعر العرب الا بيتا واحدا يعني ما يرويه للأعشى من قوله :

وأنكرتني وما كان الذي نكرت

من الحوادث الا الشيب والصلما

أفلا ترى الى هذا البدر الطالع الباهر ، والبحر الزاخر ، الذي هو أبو العلماء وكهفهم ، وبدء الرواة وسيفهم ، كيف تخلصه من تبعات هذا العلم وتخرجه ، وتراجعه فيه الى الله وتحوبه ، حتى انه لما زاد فيه - على سعته وانبثاقه ، وترايمه وانتشاره - بيتا واحدا ، وفقه الله للاعتراف به ، (وجعل ذلك) عنوانا على توفيق ذويه وأهليه ، وهذا الأصمعي - وهو صناجة الرواة والثقلة واليه محط الأعباء والثقلة ، ومنه تجنى الفقر والملح ، وهو ريحانة كل مغتقب ومصطبح - كانت مشيخة القراء وأمثالهم تحضره - وهو حدث - لأخذ قراءة نافع عنه • ومعلوم (كم قدر ما) حذف من اللغة ، فلم يشته ، لأنه لم يقوَ عنده ،

أبو عثمان أيضا يرى رأى سيبويه في صرف نحو جوار علما واجرائه بعد العلمية على ما كان عليه قبلها • فيقول في رجل او امرأة اسمها جوار أو غواش بالصرف في الرفع والجر على حاله قبل نقله ، ويونس لا يصرف ذلك ونحوه علما ، ويجريه مجرى الصحيح في ترك الصرف •

فقد تحصل اذن لأبي عثمان هنا مذهب مركب من مذهبي الرجلين ، وهو الصرف على مذهب سيبويه ، والرد على مذهب يونس • فنقول على قول أبي عثمان في تحقير اسم رجل سميته يرى : هذا يرى • كيريع ، فتد الهمة على قول يونس ، وتصرف على قول سيبويه • ويونس يقول في هذا : يرى (بوزن يريعي) فلا يصرف • وقياس قول سيبويه يرى ، فلا يرد ، واذا لم يرد لم يقع الطرف بعد كسرة ، فلا يصرف اذن ، كما لم يصرف أحى تصغير أحوى • وقياس قول عيسى أن يصرف فيقول : يرى كما يصرف تحقير أحوى : أحى •

فقد عرفت اذن تركب مذهب أبي عثمان من قولي الرجلين •

النص الخامس

(باب في صدق النقلة ، وثقة الرواة والحملة) هذا موضع من هذا الأمر ، لا يعرف صحته الا من تصور أحوال السلف فيه تصورهم ، ورآهم من الوفور والجلالة بأعيانهم ، واعتقد في هذا العلم الكريم ما يجب اعتقاده له ، وعلم أنه لم يوفق لاختراعه ، وابتداء قوانينه وأوضاعه ، الا البر عند الله سبحانه ، الحظيظ بما نوه به ،

اذ لم يسمعه ، وقد ذكرنا في الباب الذى هذا
يليه طرفا منه .

فأما اسفاف من لا علم له ، وقول من لا مسكة
به : ان الأصمعي كان يزيد في كلام العرب ،
ويفعل كذا ، ويقول كذا ، فكلام معفو عنه ، غير
معبوء به ، ولا منقووم من مثله ، حتى كأنه لم يتأدَّ
اليه توقفه عن تفسير القرآن وحديث رسول الله
- صلى الله عليه وسلم - وتحويه من الكلام في
الأنواء .

ويكفيك من ذا خشة أبي زيد وأبى عبيدة .
وهذا أبو حاتم بالأمس ، وما كان عليه من الجِدِّ
والانهماك ، والعصمة والاستمسك .

وقال لنا أبو على - رحمه الله - يكاد يعرف
صدق أبي الحسن ضرورة وذلك أنه كان مع

الخليل في بلد واحد فلم يحك عنه حرفا واحدا .
هذا الى ما يعرف من عقل الكسائي وعفته ونزاهته
حتى ان الرشيد كان يجلسه ومحمد بن الحسن
على كرسيين بحضرته ، ويأمرهما الا ينزعجا
لنهضته .

وحكى أبو الفضل الرياشي قال جئت أبا زياد
لأقرأ عليه كتابه في النبات فقال لا تقرأ على ،
فأبى قد أنسيته . وظل كتاب الحصاص لأبى
الفتح عثمان بن جنى . منهل اللغويين وعمدة
الباحثين . ومرجع المتخصصين في لغة القرآن
العربي المبين - ويدرس الكتاب في الكليات
المغوية - كلية اللغة العربية بالأزهر - وكلية
دار العلوم جامعة القاهرة كمرجع اساسي للغة
وأسرارها .

القسم الثالث

في الحرب والسياسة (اليونان والرومان)

١ حرب البيلوبونيز

لشوكيديديس الأثيني
بقلم: د. علي حافظ

٢ حملة كوروس

وتاريخ بلاد اليونان

لأكسينوفتون
بقلم: كمال ممدوح حمدي

٣ عن الحرب الأهلية

ليوليوس قيصر
بقلم: د. لطفي عبد الوهاب يحيى

٤ حياة الإسكندر الأكبر

لأرييانوس
بقلم: علي أدهم
